الأصول العريقة للممارسة التشكيلية في الجزائر

أ. محمد مخالدي

جامعة وهران

MAKHALDI4@GMAIL.COM

ملخص :

إن الحديث عن ممارسة الفنون التشكيلية في الجزائر يجرنا إلى البحث عن تأصيل لها عبر الحقب الزمنية المتناوبة منذ الوجود الأول للإنسان , حيث شهد الشمال الأفريقي حركات استعمارية استيطانية متعاقبة خلال فترات زمنية هامة , تركت اثارها الواضحة على الأهالي , وقد ساهمت تلك الاثار في نشر الثقافات ومختلف الممارسات الخاصة بها , مما أدى إلى بلورة الثقافة المحلية وإعطائها درجة عالية من التنوع والتطور,

فما هي اهم تلك الحقب التاريخية ؟, وماهي اهم الممارسات التي اتصفوا بها ؟ وكيف اكان تعامل الاهالي معها ؟.

الكلمات المفتاحية : الممارسة – الفنون – التشكيل – الجزائر .

Abstract :

The discussion of the practice of plastic arts in Algeria leads us to search for its rooting through the alternating time periods since the first human existence. The North African witnessed successive colonial colonization movements during significant periods of time that left their clear traces on the people. Practices, resulting in the crystallization of local culture and giving it a high degree of diversity and development,

What is the most important of these historical periods? And what are the most important practices that characterized them? How did the people deal with it?

Keywords: Practice - plastic arts - Algeria.

تقديم:

من الواضح جدا ان الممارسة التشكيلية من أقدم النشاطات وأهمها في تاريخ الإنسان منذ وجوده الأول, وقد أجمعت كل الأمم و الحضارات على أن للفن شان عظيم وأهمية قصوى , فهو ضرورة اجتماعية واقتصادية ونفسية وعقائدية ومعرفية و.... وقد اثبت التاريخ ان الفن ملازم للإنسان ومتطور به , يساير مستوى التحضر ونوعه فهو منسجم معه فقد تتغير طبيعة الفن حسب حاجات المجتمع وتنوع إمكاناته وتطور أحواله.

باعتبار ان الجزائر تزخر عبر كل مناطقها بممارسات حرفية وفنية تشكيلية مختلفة الأوجه وهي من الحياة اليومية للإنسان الذي دأب على تحسين ظروف حياته وتكييف الطبيعة لصالح العيش المريح والجيد , هل يمكننا الحديث عن ممارسة تشكيلية عريقة في الجزائر ؟ وباعتبار الجزائر جزءا من الشمال الإفريقي ,الذي عرف العديد من التقلبات عبر مراحله التاريخية فما هي أهم تلك المراحل وما ترتب عنها من تأثيرات ثقافية وانعكاسات من الناحية الفنية والتشكيلية خاصة ؟

الفرون البدائية:

الجدير بنا ونحن نبحث عن بدايات الفن التشكيلي في الجزائر ان نبحث عن بدايات الإنسان ووجوده الأول لان حقيقة الوجود وطبيعته هي بالأساس ممارسة لمختلف السلوكيات التي تمليها متطلبات العيش والعيش الرغيد , والتي هي في حد ذاتها ممارسة فنية بحتة , حيث شهدت الجزائر تواجدا عريقا للإنسان الأول وقد أثبتت الحفريات ان الجماجم التي عثر عليها الباحثون في منطقة تيغنيف تعتبر من أقدم بقايا الإنسان في العالم , كما أن انتشار الآثار في مختلف المناطق الأخرى اظهر نشاطا حضاريا وفنيا كبيرا خلال الفترات الزمنية المتلاحقة , تشهد على ذلك النقوش والرسوم و الوسائل والأدوات التي عثر عليها من خلال الحفريات والاكتشافات, حيث كان أول نقش حجري عثر عليه المحتل الفرنسي في منطقة عين الصفراء بولاية النعامة , عند وصول قوات الاحتلال إلى المنطقة بقيادة الجنرال كافينياك (cavignac) إلى قصر تيوت بتاريخ 24افريل 1847م في مهمة استطلاعية عثر جاكو فيلكس على رسومات صخرية كان يطلق عليها سكان تيوت اسم "الحجرة المكتوبة" و ما كان ينقصهم هو تفسير هذه الرسومات وتحديد تاريخها وأسباب وجودها , حيث تبين فيما بعد أنها تعود إلى العصر الحجري الحديث حوالي 6000سنة قبل الميلاد .

ثم توالت الاكتشافات إلى أن كان أهمها وأكبرها على الإطلاق متحف الطاسيلي والذي اعتبر اكبر وأضخم متحف طبيعي في العالم ,حيث احتوى المكان الشاسع على ألاف الرسوم والنقوش الصخرية الراقية في تشكيلاتها الفنية وتعبيراتها وألوانها وتقنياتها ,وفي هذا السياق اورد شنيتي قائلا :

"أما في العصر الحجري الحديث فقد تطور العمل الفني وانتشر جنوبا وشمالا مما حدا بالمهتمين بفنون ما قبل التاريخ أن يصفوا الجزائر بأنها عبارة عن متحف شاسع الأرجاء لرسومات عهود ما قبل التاريخ. ومن ثمة فان مواقع هذا الفن ومشاهده المتنوعة لم يكتمل الكشف عنها جميعا ...." [1]

ان الحقائق العلمية والتاريخية أثبتت أن الممارسة الفنية بصفة عامة والتشكيلية بصفة خاصة في الجزائر عريقة وضاربة في القدم قدم التاريخ . "....نرى ان رجال ما قبل التاريخ قد وضعوا الأسس الفنية للمجتمعات الريفية بالمغرب الكبير ..."[2]

وقد تحدث مردوخ إبراهيم في الحركة التشكيلية في الجزائر (1988) عن الفن الجداري القديم في الجزائر (...ان الرسوم الجدارية التي اكتشفت في تاسيلي في الهوقار تضاهي جمالا رسوم كهف التاميرا باسبانيا وكهوف جنوب فرنسا ..... وهذا مما يثبت أن الإنسان في الجزائر عرف الرسم واهتم بالفنون التشكيلية منذ القدم [3] .

لا شك في ان الفنون التشكيلية كغيرها من الممارسات تراكمية تقليدية في مسارها وتواصلها واستمراريتا ولم تكن الفنون الشعبية لتتشكل بذلك الزخم والتنوع والعبقرية لولا ذلك الانصهار أو التراكمية المحكمة والتي امتدت لآلاف السنين لنلمس وجودها عندنا في جوانب وأشكال متنوعة ومتعددة , لا مراء أننا إذا تمحصنا ايا من تلك الفنون حاليا لابد أن نجد لها أصلا أو ارتباطا بينا بتلك الممارسات الضاربة في القدم .

قراءة تشكيلية للرسوم الحجرية القديمة في الجزائر:

تمثلت تلك الأعمال الفنية في نقوش محفورة على الصخور او مساحات جبسيه مهيأة أو رسوم بألوان طبيعية , أما من حيث المواضيع فقد تعددت بين مختلف مظاهر الحياة اليومية للمجتمع القديم من مشاهد الصيد والحيوانات إلى التجمعات وبعض الأعمال اليومية ومشاهد الطقوس ,وقد تميزت تلك الرسوم ببراعة كبيرة في تمثيل المشاهد بنوع من السذاجة أحيانا حيث تظهر التشوهات المنظورية وهذا أمر طبيعي لرسام يعمل على تمثيل الواقع بكل أمانة , إن بساطة الشكل واختزاليته أحيانا وسذاجة التمثيل أعطت تلك الأعمال تعبيرية واضحة تحمل حكايات الإنسان القديم وكأنها أفلاما سينمائية مشوقة .

لقد اثبتت الدراسات التاريخية ان الفن التشكيلي البدائي كان بحق نابع من فطرة الانسان التعبيرية التي تتخذ من البساطة اسلوبا لتسجيل الافكار , وللتواصل مع الاخر حيث ان الفن التشكيلي وبعد الحقب التاريخية الطويلة لم يجد فنانوا الحداثة في اوروبا بدا من العودة اليه في اعمالهم الباهرة والتي تمثلت في فرون الحداثحيث كان اكثر وضوحا وبيانا في (الأسلوب الوحشي) [4] , الذي ظهر في بداية القرن العشرين على يد مجموعة من الفنانين يتقدمهم الفنان الفرنسي هنري ماتس الذي قيل عنه انه " اعاد الفن الى بدائيته ", حيث لم يعد الفن محاكاة دقيقة للطبيعة وانما اصبح يتجه اكثر الى التعبير باساليب بسيطة بعيدة عن التعقيدات التفصيلية التي ترهق الفنان كما تتعب المتلقي في قراءة الصورة وقد كان ماتس واضحا وصريحا عندما قال " ان التعبير هو كل ما اصبو اليه ".

اجمع الدارسون على ان الفن لم ينشا لغرض الزينة والجمال حيث كانت تلك الأعمال لأغراض أخرى تتمثل أساسا في تلبية الحاجات اليومية وما كان يؤرق الإنسان ويشغل خاطره بكثير من الرغبة والحاجة او بالخوف والرعب مثل ما نلمسه في مشاهد الحرب والكوارث والطقوس , إلا ان تلك الأعمال لم تخلو من القيم الجمالية الآسرة التي تمتع العين وتشد المشاهدة ذلك لان القيم الجمالية المتعارف عليها مثل التوازن والتنوع والوحدة والإيقاع والحركة ... لم يخترعها الإنسان وإنما اكتشفها من خلال الأعمال الفنية السابقة لأنها وليدة الفطرة وهي موجودة في داخل كل إنسان يتقبل الجمال ويتذوقه وهو ما أكده امانوال كانت في تفسير لملكة الحكم .

لقد كان الإنسان القديم في الجزائر والشمال الأفريقي عامة فنانا بما للكلمة من معنى , حيث عرف كيف يطوع الخامات التي وجدها ليشكل بها معرضا ومتحفا لإبداعاته التي تعدت ان تكون مجرد رسومات هنا وهناك لتصبح ثروة تاريخية تأريخية لم يجد المؤرخون غيرها للتعرف على الأجداد وحكاياتهم .

العهد الفينيقي :

من بين الفترات البارزة في تاريخ الإنسان في شمال إفريقيا الفترة الفينيقية ولعل أهم ما ميز تلك الفترة ذلك الاندماج الذي حصل بينهم وبين سكان الشمال الإفريقي الأصليين , وما ترتب عنه من آثار ومكتسبات لازالت بارزة إلى يومنا هذا .

مر الوجود الفينيقي في بلاد المغرب بعدة مراحل بدأت بالمبادلات التجارية التي أدت الى اكتشافهم للمنطقة ثم قامو ببناء المراكز والقواعد لغرض المبادلات التجارية الدائمة ابتدءا من القرن 12 ق م, إلى أن أسسوا أهم وأشهر مدنهم على الإطلاق (قرطاج Quart Hadasht) اي (المدينة الجديدة)ولم تلبث هذه المحطة ان نمت وازدهرت [5] . وتمكنت من بسط نفوذها على معظم منطقة الشمال الإفريقي حيث تركت بصماتها الواضحة على شعوب المنطقة في مختلف النواحي .

وبحكم الامتداد الكبير للسواحل الجزائرية والمقدر ب 1200كم فان الفينيقيين ومن بعدهم القرطاجيون لم يتوانوا في إرساء القواعد والمحطات على تلك الضفاف ,حيث أصبحت تلك المحطات نواة لمدن كان لها شان كبير فيما بعد ومن أهم تلك المحطات ما ذكره شنيتي محمد البشير ,

- هيبو(بونة – عنابة) ,– روسيكادا (سكيك,شولو(القل) ,اجلجلي (جيجل) ,– صلدا (بجاية), – ايومنيوم (تيغزيرت = الجزيرة) , – روسوكوروا (دلس) , – روسغونيا (تامنفوست – برج البحري) , – ايكوسيم (الجزائر), – تيبازة المدينة الشهيرة , – ايول (شرشال).....[6]

ان مجيء الكنعانيين إلى الشمال الأفريقي احدث كثيرا من الاظافة على المنطقة و سكانها حيث نقلوا معهم ما امكن نقله من خبرات وقدرات ومعارف في مختلف المجالات التجارية والزراعية والمعمارية والعسكرية والثقافية وغيرها ..مما جعل منهم مساهمين في بناء معالم للمجتمعات المغاربية حيث ذكر شنيتي "...ان أقدم حضارة مدنية عرفتها بلاد المغرب هي التي بناها الكنعانيون (كما يسمي الفينيقيون أنفسهم),وساهم في انجازها الليبيون (المغاربة) بفعل الاحتكاك والتفاعل الايجابي ,الذي حصل بين الطرفين على مدى أجيال" [7] .

وما يهمنا هنا الجانب الثقافي والفني , حيث أهم ما يلاحظ فيها هو انتشار اللغة الفينيقية بين البربر وتعلمهم الحروف الهجائية وقد رسخت تلك اللغة لدرجة انه كانت لها تداعيات طويلة منذ القرن 8 ق م الى القرن 4 ق م .

...هذا والى الفينيقيين يعود الفضل في تعليم سكان هذه المنطقة بعض الصناعات المحلية والأساليب الفلاحية ولاسيما طريقة غرس الأشجار , مما كان له الفضل في جعل المنطقة خضراء وارفة الظلال .[8]

يتحدث الكثيرون عن الفن الامازيغي ويعملون على تأصيله ووصفه على انه كيان مستقل شديد التأصل إلا أن هذا الكلام فيه الكثير من المغالطة لان ما يسمي بالفن الامازيغي في الحقيقة لا وجود له في البدايات الأولى انما تولد بعد تلك الموجات الاحتلالية والاستيطانية السلمية منها وغير السلمية , و التي بلورت وشكلت الفنون الشعبية التي عرف السكان المنتشرون في الشمال الإفريقي بها , وهم من يطلق عليهم الامازيغ , إذ أن انتسابهم للأصول الفينيقية شديد وهو ما يسمح بإثبات الارتباط الحاصل مع القبائل العربية الكنعانية , وهذا ما يجعلنا ندرك ذلك التقارب الكبير بين الامازيغ والعرب من حيث الأصول العرقية , وما جرنا إلى هذا الراي هو التاكيد على اظهار ما للفينيقيين من اثر كبير فتاريخ الشمال الإفريقي وارتباط كثير من الممارسات الفنية والثقافية والصناعية بالعادات والثقافة الفينيقية العريقة والتي تعتبر نتاجا للحراك الحضاري الكبير الذي شهده حوض البحر الأبيض المتوسط وكل المناطق المحيطة به .

خلاصة القول هنا ان ارتباط الامازيغ كان وثيقا ومتاصلا , والسبب في ذلك هو درجة التقارب والارتباط التي كانت بينهما , فالفينيقيون لم يكونوا اهل حرب واصحاب توجه استعماري اضطهادي وانما عرفوا بمسالمتهم ومعاملاتهم كانت تجارية بحتة , وما اقاموه من مدن لم يكن الا لغرض بناء قواعد للتوقف والراحة , خلال تنقلاتهم عبر البحر الابسض اتلمتوسط.

مرحلة الوجود الروماني:

بعد الحروب البونية الطويلة بين القرطاجيين وروما مابين (264 – 146 ق م) انتهى هذا الصراع بانتحار القائد (حنيبعل) وتدمير مدينة قرطاج وتحويلها الى مدينة رومانية سنة 146 ق م [9], ومنها استطاع الرومان فرض سيطرتهم ونفوذهم على سائر المنطقة حيث أملوا قوانينهم ونمط العيش لديهم والذي تميز بالعنف والاضطهاد ,حيث ساهم هذا التوجه في غياب التأقلم والتواصل بينهم وبين السكان الأصليين إلا في حدود جد ضيقة .

ولعل أهم ما خلفه الرومان لأبناء المنطقة الآثار المعمارية التي تنتشر عبر مختلف المناطق التي اتخذها الرومان كقواعد عسكرية او مراكز وتجمعات سكنية على النمط الروماني , من حيث أساليب البناء والفنون التشكيلية متمثلة في الرسوم والنقوش التي ميزها بالدرجة الأولى فن الفسيفساء الرائع , وهو احد سيمات الفن الروماني القديم , حيث

لم يبخل الرومان بالتفنن في انجاز الجداريات الفسيفسائية على ما أنجزوه من عمران ضخم, وقد شملت تلك الآثار مدنا كاملة بكل مرافقها الفنية والدينية كالمعابد والمسارح وغيرها .

لاشك ان تلك الممارسات الفنية الراقية والواسعة الانتشار قد تركت آثارها على الإنسان الذي استقر بالمنطقة ,حيث استلهم منها الكثير من أساليب العيش في نشاطه ألفلاحي او في تلبية حاجاته اليومية , من ملبس ومسكن ومأكل وغيرها , إلا ان ذلك التأثير لم يكن بالدرجة التي اثر بها الفينيقيون وأسباب ذلك معروفة وواضحة , حيث ان السياسة الاستعمارية للرومان وميلهم إلى التسلط والاستعباد واضطهاد الشعوب أدى إلى القطيعة بينهم وبين تلك الشعوب , وكان كذلك سببا في فرار الكثير من السكان إلى مناطق أكثر امنا مثل المناطق الجبلية الوعرة وهذا كاف لتفسير تشبث الامازيغ بالمناطق الجبلية رغم صعوبة العيش بها من حيث التضاريس والمناخ القاسي خاصة في الشتاء , انها كرامة وأنفة الإنسان الامازيغي الذي يرفض الذل والهوان مقابل العيش الرخيص لقد اختار الامازيغي الوضع الأصعب ليظفر بعزته وكرامته أمام طغيان الرومان .

ترك الرومان بعد رحيلهم الكثير من الآثار المعمارية الكبيرة في ثرشال وعنابة وتيمقاد وغيرها كثير , الا اثارهم الثقافية والفنية والحرفية كانت محدودة جدا نظا لما ذكرناه من عواقب السياسة الرومانية المتسلطة تجاه الشعوب التي احتلوا ارضها .

الفن الإسلامي :

اتسم التاريخ الإسلامي للجزائر بعدة فترات ومراحل رسمتها الدول التي تعاقبت عليها بحكم التجاذبات والصراعات التي عرفتها البلاد الإسلامية عامة,سوف لن نغوص في تلك التفاصيل المتشعبة والمتشابكة والتي لم يفصل في حيثياتها أهل الاختصاص أنفسهم وسوف نجتهد باستخلاص مقاصد موضوعنا برؤية مركزة واضحة المقاصد بعيدا عن الصراعات وتقلبات الحكم ,حيث يمكننا الحديث في هذا الموضوع عن حالتين او مرحلتين من قدوم العرب المسلمين الى الجزائر , فالأولى كانت عبر الفتوحات التي شهدتها بلاد المغرب بقيادة عقبة بن نافع رضي الله عنه بمعية الصحابة والتابعين الذين حملوا لواء الفتوحات الإسلامية ,والثانية تمثلت في قدوم العرب الفارين من الأندلس واستقرارهم في بلدان المغرب العربي خاصة المغرب الأقصى والجزائر .

القدوم الأول :

حين جاء الفاتحون إلى هذه البلاد حملوا معهم أعظم رسالة إلهية وهي الدين الإسلامي دين القيم الإنسانية والحضارية , لم يحمل هؤلاء الفاتحون معهم الفن والجمال والكماليات ولكنهم حملوا البذور التي تنبت كل معاني الفن والجمال والمتعة والراحة والرفاهية للأمم التي تتقبل هذا الدين العظيم .

بعد ان اندمج سكان الشمال الأفريقي بالعرب الفاتحين تشبعوا بقيم الإيمان والتقوى وتعلموا الكتابة العربية كون العربية حاملة للثقافة الإسلامية واستطاعوا ان يأخذوا الكثير من العادات والسلوكيات الحضارية التي غيبت عنهم خلال الفترات السالفة , حيث ان الشعور بالأمن والطمأنينة والتواصل بينهم , جعلهم اقرب الى الاستقرار والتمدن وعرفوا أكثر الحياة الجماعية التي أسسها الإسلام وجعل من المسجد اللبنة الأولى لها .

رغم ما لهذه العناصر من قيم وأهمية فان الحديث عن الممارسات الفنية التشكيلية لم يصل بعد الى الاحترافية والمظهر الواضح الذي يضعنا أمام فن إسلامي بارز المعالم وأسباب ذالك معروفة.

– كون الامازيغ كما العرب ابعد عن التمدن والتحضر , فهم ابعد عن الاستقرار واقرب الى الترحال مواكبة للتقلبات ومسايرة للظروف التي أحاطت بمعيشتهم خلال عصور طويلة يقول العلامة ابن خلدون في مقدمته : "وعجم المغرب من البربر , مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين , ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ماكان من صناعة الصوف في نسجه والجلد في خرزه ودبغه فانهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها ..."[10] [11]

– كذلك فان عبء الرسالة المحمدية يحتم على حاملها التضحية والعزوف عن العيش الرغيد في سبيل نشر هذا الدين في مختلف البقاع , حيث اشتغل الكثير من الناس بإكمال الفتوحات خاصة الى بلاد الأندلس والتي يعتبر طارق بن زياد من أشهر وابرز قادتها الامازيغ .

القدوم الثاني :

لقد بلغ التحضر الإسلامي ذروته وبلغت الفنون مابلغته من الرقي والتألق أيام الأندلس , حتى أصبحت تلك الأيام كالحلم الجميل الذي يستحيل تكراره وكأنه حكاية جميلة من حكايات ألف ليلة وليلة ,يتناقلها الأبناء عن الآباء والأجداد بكثير من الحسرة والآهات . بنهاية تلك الأيام وفرض الأوروبيين المسيحيين لسيطرتهم على الأرض طرد العرب ومن والاهم من اليهود خاصة ,هؤلاء المطرودون لم يجدوا مفرا غير الطريق التي جاؤوا منها فاحتضنهم الشمال الأفريقي وجمع شملهم , فاستقر الكثير منهم في أهم المدن وأكثرها نظاما وأمنا

وأفضلها قابلية للعيش مثل تلمسان وقسنطينة والبليدة , وعاد اهل الأندلس إلى ممارساتهم الفنية والحرفية السابقة بعد ان شعروا بالأمن والاستقرار فنشروا ما يعرفونه ويحسنونه من حرف و ممارسات فنية بين أهل تلك المدن , مثل صناعات النسيج والملابس والنحاس والأثاث و الآلات الموسيقية ولوازم الفروسية والحلي والفنون المعمارية والزخارف والخط العربي وتربية النباتات والأزهار وكل العادات والطبائع التي نضجت لدى أهل الأندلس خلال سبعمائة عام او أكثر في ضل الرفاهية والتطور العلمي والمعرفي وبجمال الطبيعة وشاعريتها مع الأمن الذي ساد البلاد وأكمل تهيئة الظروف وملاءمتها لذلك .

وقد جاء في تاريخ الجزائر الثقافي ".....لذلك تدفقت امواج المهاجرين على شواطئ المغرب العربي ينشدون الحماية والأمن ويبحثون في نفس الوقت عن طريق العودة والثار .وكانت طبقات المهاجرين تختلف ثروة وثقافة وجاها . ففيهم ابناء الشعب البسطاء وأحفاد الملوك الوجهاء وفيهم أصحاب الصنائع وأصحاب القلم . وهكذا كانت الماسات الإنسانية في الأندلس خيرا وبركة على مجتمع المغرب العربي الذي كان يلعب دور الوسيط في الإنتاج الثقافي وليس دور المنتج .[12]

حيث ذكر مردوخ ..." .....وهكذا يعود الأندلسيون مرة أخرى إلى الجزائر بعد نكبة الأندلس ويسهمون في تطوير فنونها الإسلامية مما جلبوه معهم من العناصر الحضارية التي كانت مزدهرة في بلادهم ...."[13]

ونظرا لقابلية التعلم و الاندماج والتأقلم لدى الإنسان الجزائري أدى ذلك الى تأصل الممارسات الفنية المختلفة التي جلبها القادمون من الأندلس وأصبح السكان الأصليون ممارسين فعليين لمختلف الفنون والنشاطات الحرفية المختلفة إضافة إلى ما كانوا يمارسونه من قبل , ومما ساهم في استمرار تلك الممارسات وتطورها تلك الفترات التاريخية التي اتسمت بالاستقرار السياسي , واهتمام الحكام بالفن والتعليم والصناعات , كان ذلك في ظل الدويلات التي فرضت سلطانها على شتى مناطق الشمال الافريقي , وشهدت استقرارا وتطورا تجاريا واقتصاديا , صحبه تطور علمي وفكري وفني , مما احدث اجواءا تليق بمباشرة مختلف النشاطات الاقتصادية والفنية امتدادا واستكمالا للمسيرة الطويلة للممارسين لمختلف النشاطات الفنية من الأجداد والأولين , حيث لم تكن الممارسات وليدة لحظة زمنية عابرة بل جاءت مزيجا وامتزاجا لما سلف من ممارسات فنية منذ الوجود الأول للإنسان في المنطقة , لما لهذا الميدان من خاصية تراكمية لا يمكن بأية حال من الأحوال إنكارها .

لقد شهدت بلاد المغرب ومنها الجزائر نهضة حضارية حقيقية في ظل الدويلات التي تكونت وعرفت نوعا من الاستقرار , حيث لعب الأندلسيون دورا كبيرا في نشر العلوم والمعارف والحرف ومختلف

الممارسات الحضارية إلى تلك المدن , نذكر منها بالأخص مدن تلمسان وقسنطينة والبليدة والجزائر العاصمة , حيث انتشرت الو رشات والمصانع هنا وهناك وانتشرت معها المنتجات الفنية المختلفة وبفضلها طور البرابرة الامازيغ صناعاتهم النسيجية والجلدية وغيرها كما ذكر في قول ابن خلدون سالفا , فكثر الحرفيون الفنانون المبدعون فب جميع المجالات , في صناعة المنسوجات والملابس والصناعات الجلدية والالحذية والفخار والنحاس والطرز بالإضافة إلى البنائين والمزوقين والمزخرفين والخطاطين , وصنعت تلك الممارسات اجواءا بهيجة ورائعة شبيهة جدا بتلك الاجواء التي سادت شوارع قرطبة واشبيلية ايام العز في الأندلس , واصبحت ازقة المدن وقصوره ومساجدها اشبه ماتكون بما كان ينجز في الأندلس ,

لم نرد الخوض أكثر من هذا في تفاصيل الأحداث التاريخية المتعلقة بالحكم والسيطرة والضعف والقوة والحروب والتحالفات وغير ذلك , وإنما اخترنا ان نتطرق إلى أهم الممارسات الفنية والحرفية التي نمت وازدهرت في اهم المدن التي عرفت تحضرا وبعضا من الأمن والاستقرار الذي فقد في كثير من البلاد الإسلامية عامة وبلاد المغرب العربي خاصة , كونها أصبحت عرضة لهجمات الاسبان الطامعين في الضفة الثانية للبحر الأبيض المتوسط والمتذرعين بمنع العرب الأندلسيين من التكتل ومعاودة الزحف إلى الأندلس , مما أدى الى قدوم الأتراك بعد ان استنجد الجزائريون بهم لحمايتهم من حملات الاسبان والأوروبيين الغزاة .[14]

استمر هذا الوضع إلى أن جاء الأتراك العثمانيون الى الجزائر مدافعين عنها ضد الهجمات الأوروبية الصليبية الطامعة في السيطرة على الضفة الثانية للبحر الأبيض المتوسط والمتذرعة بملاحقة الأندلسيين الفارين ومنعهم من إعادة التكتل ولم الصفوف وإعادة التفكير في العودة الى الأندلس , الا ان الواقع اثبت ان معركة العقاب في العام(609هـ – 1212 م) كانت بداية لنهاية دولة الموحدين , وقد استغلت القبائل المغاربية ضعف الدولة الموحدية وعدم قدرتها على صد محاولات الانفصال لتظهر دويلات عديدة أعلنت انفصالها واستقلالها, من بين أهم تلك الدول دولة بني مرين وبني زيان والدولة الحفصية, وفي ظل تلك الظروف المتوترة والمفعمة بالإحداث والنزاعات بين الدويلات والقبائل , اقتصر الاستقرار والتمدن خلال بعض الفترات في العواصم الأكثر أمنا واستقرارا .

الخلاصة والاستنتاجات :

وخلاصة ما اردنا الوصول اليه من خلال هذا البحث ان ما تزخر به الجزائر من تنوع ثقافي وإنتاج فني متنوع وفنون شعبية متنوعة وواسعة الانتشار ليس وليد مرحلة ضيقة من الزمن , بل هو رصيد من التراكمات

الثقافية المتعاقبة على هذه الأرض , تلاحقت واجتمعت لتشكل رصيدا هائلا من الممارسات مستخدمة ماتوفر لديها من المكواد والخامات مثل الصوف والجلد والخشب والطين والمعادن و..في مختلف المناطق الممتدة من جبال القبائل والاوراس والونشريس والظهرة إلى الصحراء الشاسعة والممتدة امتداد البصر ,وجاز لنا ان نفتخر عندما نتحدث عن فنوننا الشعبية وتقاليدنا الحضارية المتأصلة , لم يكن الإنسان الجزائري في يوم ما إنسانا مستهلكا لما يصنعه الآخرون , وإنما كان إنسانا مبدعا ومنتجا يعتمد على الخامات المتوفرة لديه لبدع وينتج ما يحتاج إليه معتمدا على ذكائه الطبيعي وحسه الفني وما تعلمه أو ما شاهده عند الآخرين , هذه باختصار قصة الإنسان الجزائري الفنان في كل بقعة من هذه الأرض , في الهقار وفي الاوراس وفي بني يني وغرداية وقسنطينة وتلمسان والبليدة وفي كل الهضاب العليا وفي كل شبر من هذه الأرض .

[1]- الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة. -محمد البشير شنيتي - دار الهدى للطباعة والنشر الجزائر - 2013- ص26

[2]- متاحف الجزائر صور من الماضي –سلسلة الفن والثقافة.من اصدالرات وزارة الاعلام والثقافة- الجزائر 1976- ص.10

[3]-– الحركة التشكيلية في الجزائر – مردوخ ابراهيم -المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر1988- ص-08

[4]- الوحشية اسلوب فني تشكيلي من اهم فنون الحداثة ظهر في فرنسا سنة 1906 علي يد مجموعة من الفنانين الشباب تزعمهم الفنان الفرنسي هنري ماتس .

[5]-– تاريخ المغرب العربي في العصر الاسلامي – د عبد الرحمن حسين العزاوي– دار الخليج للنشر والتوزيع .عمان الاردن.2011 ص.17

[6]- الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة - شنيتي محمد البشير –.- دار الهدى عين مليلة الجزائر 2013. ص120.123

[7]-المصدر السابق ص 195

[8]-– تاريخ المغرب العربي في العصر الاسلامي – د عبد الرحمن حسين العزاوي– دار الخليج للنشر والتوزيع عمان الاردن.2011 . ص18

[9]-نفس المصدر –ص.20 –.

[10] -عبد الرحمن ابن خلدون – المقدمة ص 318 –دار الكتب العلمية بيروت

11- ابو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي -ج1 –ص- 46-47 –دار المغرب الإسلامي -1998

[13]- ابراهيم مردوخ الحركة التشكيلية في الجزائر –ص17 – المؤسسة الوطنية للكتاب 1988